التصوف والصوفية

للكاتب المغربي الأستاذ عبد السلام محمد الكويره

لفظ التصوف على ثلاثة أحرف : متقطعة من ثلاث كلمات دالة على معانى ثلاثة هى أوصافه المختصة به ... فالصاد مقتطع من الصفاء والواو مقتطع من الوفاء ، والفاء مقتطع من الفناء .

قال الشاعر الصوفى أبو الفاسى :

صفى منهل الصوفى عن علل الهوى ... فما شاب ذاك الورد من نفسه حظ
ووفى بعهد الحب إذ لم يكن له ... إلى غير من يهوى التفات ولا لحظ
محت آيات الاظـــلام نهاره ... وقد ذهبت منه الإشارة واللفظ

هذا وقد اختلفوا فى اشتقاقه : فقيل نسبة إلى الصوف لأنه زى أهله غالبا . وقيل نسبة إلى الصوفة الملقاة على الأرض والرياح تحركها لأنهم يؤثرون التواضع وقيل نسبة إلى صوفة القفا للينها . فإن المؤمن لين معين . وقيل نسبة إلى الصفة وهى مظلة فى المسجد النبوى كانت مأوى الفقراء المتجردين لأن الصوفى تابع لهم فيما ثبت الله لهم من الوصف حيث قال : (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) وقيل من الصفو الخاص . وقيل من الصفا لأنه مقامهم . قال أبو الفتح البستى : —

تخالف الناس فى الصوفى واختلفوا ... جهلا فظنوه مشتقا من الصوف
ولست أمنح هذا الاسم الافتى ... صفا فصوفى حتى سمى الصوفى

وقد حده حجة الإسلام الغزالى بقوله : هو تجريد القلب لله تعالى واحتقار ماسواه .

وقيل هو نتيجة رسوم أهل المعارف وخلاصة علوم رأس العوارف .

وقيل هو علم يعرف بكيفية تصفية الباطن من كدرات النفس أى عيوبها . وصفاتها المذمومة كالغل والحقد والحسد والغش وطلاب العلوم وحب الثناء والرياء وغير ذلك .

قال الشيخ زروق فى قواعده : لقد حد علم التصوف بوجوه تبلغ نحو الفين مرجعها كلها صدق التوجه إلى الله سبحانه وتعالى .

أما موضوعه : فالذات العلية الربانية لأنه يبحث عنها باعتبار معرفتها ، أما بالبرهان أو الشهود والعيان . فالأول للطالبين ، والثانى للواصلين . وقيل موضوعه النفوس والقلوب والأرواح لأنه يبحث عن تصفيتها وتهذيبها .. وقال معاذ الرازى : من عرف نفسه فقد عرف ربه . وقليل الآداب اللائقة بالعبد بين يدى مولاه .

وفائدته : هو إفراد القلب لله سبحانه وهذا بالنسبة للمخلصين . فيحصل لهم بالإنكباب عليه مزايا عظيمة منها : تقوية أنوار الإيمان واليقين . — لأن فى كلام القوم صولة تحق الحق وتبطل الباطل .

ومنها معرفة آداب العبودية اللائقة بمقام الربوبية إذ التصوف كله آداب — .

قال أحد العارفين : إن لكل مخلوق حاجة ولكل حاجة غاية ولكل غاية سبيلا . . والكريم الرازق وقت للأمور أقدارها وهيأ للغايات سبلها وسبب للحاجات ببلوغها .

وقد قالوا فى الصوفى أنه كالأرض يطرح عليها كل قبيح ويخرج منها كل مليح فهم لا يردون على الناس أحجارهم ولكن يفيضون عليهم من أنوارهم . قال تعالى :

(ثم أورثنا الكتاب الذى اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه)

وهو صاحب النفس الأمارة — (ومنهم مقتصد) — وهو صاحب النفس اللوامة (ومنهم سابق بالخيرات) وهو صاحب النفس المطمئنة — وللصوفية تقسيم خاص فى المعاصى فمندهم أربعة خاصة بالقلب فهى : الشرك والأصرار على المعصية والقنوط من رحمة الله والأمن من مكر الله . وأربعة فى اللسان وهى . شهادة الزور وقذف المحصنات واليمين الغموس والسحر . وثلاثة فى البطن وهى شرب الخمر وأكل مال اليتيم وأكل الربا . واثنان فى الفرج كالزنا واللواطة واثنان فى اليدين وهما القتل والسرقة . وواحدة فى الرجل وهى الفرار من الزحف وواحدة تتعلق بجميع الجسد وهى حقوق الوالدين .

وقد قالوا فى العاصى إن له تصوف حوته كتب المحاسبى : وللفقيه تصوف تفرغ إليها ابن الحج فى مدخله .

وللمحدث تصوف حام حولها ابن العربي فى سراجه . وللعابد تصوف دار عليه الغزالى فى منهاجه .

والمتريض له تصوف نبه عليه القشيرى فى رسالته . وللناسك تصوف حوتها كتابى القوت والاحياء .

وللحكيم تصوف أدخله الحاتمى فى كتبه . وللمنطقى تصوف نحا إليه ابن سبعين فى تأليفه جاء به البونى فى أسراره وللأصولى تصوف قام الشاذلى بتحقيقه فليعتبر كل بأصله من محله وبالله التوفيق ...